

أثر الترجمة في ازدهار وتطور العلم

بقلم د. سعيد شريفى

أستاذ بقسم الفلسفة المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

مقدمة:

للتربة ذات دور أساسى فى التواصل الثقافى والمعرفى بين الشعوب والأمم، لذلك كان من الطبعى أن تقترن عصور الازدهار الحضارى فى البلاد العربىة والإسلامىة بانتشار حركة الترجمة والتفاعل مع الحضارات الأخرى، والحديث عن أهمية الترجمة لا يكون بمعزل عن الإشارة إلى دور وأهمية اللغة التى لا يمكن الاستغناء عنها فى أية عملية فكرىة إبداعىة، تصب فى غاية واحدة هى ازدهار الحضارة وتطور العلوم وإثراء اللغة العربىة وتوسيع آفاقها لمسارىة ركب التطور العلمى⁽¹⁾. لإبراز ما للترجمة من أثر فى ازدهار الحضارة الإنسانىة وتطور العلوم ارتأى أن أنطلق من تحليل مفهومى الحضارة والترجمة ومظاهر الحضارة وأهم عوامل نشأتها، من أجل الوقوف على عوامل الازدهار أو الانحسار لهذه الحضارة أو تلك؟ فما هو مفهوم الحضارة؟

التحليل:

الحضارة لغة هى الإقامة فى الحضر، وهى خلاف البداوة⁽²⁾، وهى بهذا المفهوم تشير إلى التمدن والدخول فى حالة الحضارة والرقي تحت تأثير العلوم والفنون الجميلة والصنائع المناسبة لهذه الحالة⁽³⁾، أما فى المفهوم الاصطلاحى للحضارة، فهى تعنى مظاهر التقدم الأدبى والفنى العلمى والتقنى التى تنتقل من مجتمع إلى آخر⁽⁴⁾. وتعتبر اللغة هى أداة النقل الحضارى بين الأمم والشعوب المختلفة لغة وثقافة، والمتنافرة حكما وسياسة. ولا سبيل إلى إزالة هذا التنافر إلا بتقارب الشعوب بعضها من بعض عن طريق التبادل الثقافى والتفاهم اللغوى⁽⁵⁾، وفى هذا المنعطف تبرز أهمية الترجمة التى ساهمت فى عملية التوافق الناتج عن الاختلاط المباشر أو غير المباشر بين الشعوب المختلفة فى الجنس والعرق، والمتشابهة فى الشوق والطموح إلى معرفة الآخر واكتشاف ما لديه من

كنوز المعرفة، ولولا هذا الفضول العلمي، لما تلاقت الثقافة الفارسية بالثقافة العربية الإسلامية، ولما أقبل الأوروبيون وبدون مركب نقص أو عقدة نفسية على الارتواء من منابع الثقافة العربية الإسلامية لخدمة شعوبهم، وبناء صرح حضارتهم التي أصبحت في القرن العشرين نعمة ونقمة على الأمة العربية والإسلامية، فهي نعمة في جانبها المادي، ونقمة في مضمونها الفكري والروحي.

وقبل إبراز ما للترجمة من أثر في هذا المجال. أريد أن أحدد مفهوم الترجمة وعلاقتها بالإنسان.

مفهوم الترجمة:

يعتبر التفاهم والاتصال الشفاهي والكتابي بين البشر ضرورة اجتماعية وإنسانية مستمدة من طبيعة الإنسان المحكوم عليه بالعيش ضمن بنيات اجتماعية ومؤسسات سياسية متميزة من جهة ومتفاعلة متكاملة من جهة أخرى. مصداقا لقوله تعالى:

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...]⁽⁶⁾. مضمون الآية الكريمة يبين أن الإنسانية مختلفة في تركيبها الاجتماعية واللغوية والثقافية، وهذا الاختلاف يقتضي التكامل والتعاون والتعارف والتفاهم، ولا يمكن أن نتصور تفاهما بغير لغة، واللغات تختلف باختلاف الشعوب والأمم، وهذا الاختلاف اللغوي آية من آيات عظمة الله وقدرته، بنص قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾⁽⁷⁾. ولهذا فكر الإنسان في كيفية تجاوز الحواجز اللغوية لمد جسور التبادل المعرفي والتجاري، وكل ما له علاقة بحياة الإنسان المدني بطبعه فاهتدى إلى فن الترجمة، هذا الفن القديم بقدم المجتمعات والذي كان في بدايته شفويا، ثم انتقل إلى مرحلة الترجمة الكتابية التي صاحبت اختراع فن الكتابة، حيث أثبتت بعض الاكتشافات الأثرية في شمال سوريا وجود ألواح يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، هذه الألواح تحمل كتابات ثنائية اللغة، وأخرى ثلاثية اللغة بين دولتي سومر وأبيلا وتعتبر هذه الألواح أقدم دليل على قواميس الترجمة⁽⁸⁾.

والترجمة من حيث المفهوم اللغوي تعني الوضوح والتفسير والبيان وقول الفرد « ترجمت الأمر يعني أوضحته، مما يجعل الوضوح شرطا من شروط الترجمة الجيدة »⁽⁹⁾. أما

مفهومها الاصطلاحي، فهي تعني نقل منتوج فكري أو مادي من لغة قوم إلى لغة قوم آخر، وهي نوعان: شفوية وكتابية، ولكن الترجمة فن عسير غير مشكور، لما قد يقع فيه المترجم من هفوات فكرية تحول دون تحقيق الغرض العلمي والمعرفي، هذه الهفوات قد تكون مقصودة أو غير مقصودة، وهذا النوع الثاني نتيجة لبعض النعرات الإيديولوجية والدينية، من أجل تشويه صور الفكر المترجم منه، ولهذا يجب الاحتراز والتفطن عند القراءة لما بين السطور، أما النوع الأول فهو نتيجة لعدم إتقان فن وقواعد الترجمة، ولهذا يجب بذل جهد أكبر، من الجهد المبذول في التأليف، لأن المترجم يكون محصوراً في كلام المؤلف وفي معانيه، وليست له حرية الاختيار للألفاظ والمعاني التي تحلو له، مثل حرية المؤلف، ثم إنَّ المطلوب من المترجم هو نفوذه إلى روح الكاتب لفهم شخصيته تمام الفهم⁽¹⁰⁾، وعليه فإنَّ المترجم مطالب بإتقان اللغة التي يترجم منها، ويكون حسن الاطلاع على موضوع العلم الذي يترجمه وتمكنا من فن اللغة وقواعدها، « صرفاً، ونحواً، وإملاءً وبلاغةً وبياناً »⁽¹¹⁾ غير أن المترجم لا يتسنى له القيام بمهمته العلمية، إلا إذا توفرت له مجموعة من الشروط والعوامل النفسية والاجتماعية والمادية والسياسية، فالنظام السياسي مسؤول على توفير هذه الشروط، وهذا ما يتبين لنا عند الحديث عن الترجمة في عهد الدولة العباسية، وأول هذه الشروط ضمان حقوقه المادية وتوفير الحماية السياسية التي تسمح للمترجم بأداء وظيفته دون تهديد ولا وعيد، ودون إرغامه على ترجمة كتاب يخدم النظام، وعزوفه عن كتاب آخر يكشف مساوئ النظام. فالمترجم يحتاج إلى قانون خاص يضمن له العيش الكريم حتى لا ينحرف عن مهمته، وتنحرف الترجمة عن غايتها، حيث نجد بعض المترجمين يتهربون من ترجمة الكتب والمؤلفات النفيسة التي لا تجد رواجاً في السوق، ويتعاطون ترجمة خطب السياسيين ومقررات المؤتمرات الجوفاء طلباً للراحة وللحسب المادي اليسير. فالجتمتع يحتاج إلى مؤسسات لترجمة الأفكار التي تحي الحضارة وتنعش المشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فالدول المتقدمة تعاني من أزمة الافتقار إلى الطاقة المادية والدول العربية تعاني من أزمة أخطر وهي أزمة الافتقار إلى الأفكار⁽¹²⁾. وفي رأبي أن سبب هذا الفقر الفكري هو الانغلاق السلبي في الميدان الفكري. والترجمة تعتبر من العوامل الإيجابية التي تساهم في إعطاء دفع قوي للازدهار الحضاري والتطور العلمي والتكنولوجي. ففي العصور الوسطى فتح الأوربيون

أبوابهم أمام تدفق علوم العرب إلى بلدانهم، وما كان ذلك حبا في العرب، ولكن في علوم العرب وشاءت الأقدار أن تنقلب الموازين وتدور الدوائر على العرب نتيجة الانغلاق الفكري والانشغال بفتات الحضارة عوض الاهتمام ببلبها. وما الترجمة البناء إلا إحدى الوسائل التي تكسر الحواجز بين الحضارات وتنعش العلوم، وتثريها شريطة أن تكون خاضعة لمعايير علمية تضع نصب أعينها مساعدة المجتمعات على الرقي والازدهار والتبادل المعرفي، ومن المعايير التي يجب أن يلتزم بها المترجم هي ما يسمى بمفاتيح الترجمة، ومنها:

1- الاقتباس:

وهو أبسط طرق الترجمة وبه تسد فجوة مفاهيمية لا عهد بها للغة المترجم إليها، ومن أكثر حالات الاقتباس، التعابير المصطلحية، والمصطلحات المستجدة التي قد تستعصي في بداية الأمر على النقل، ومن أكثر وسائل الاقتباس شيوعا هو التعريب، وهو نسج المصطلحات على المنوال العربي مع الاحتفاظ بالجذور الأصلية.

2- الاستعارة:

وترمي إلى النقل الحرفي للتعابير الاصطلاحية، وإدخالها إلى لغة المترجم إليها.

3- الترجمة شبه الحرفية:

وهو إيراد جمل عربية واضحة سلسلة منسوجة على منوال اللغة المترجم منها ومطابقة معها في أجزائها مع عدم تجاوز الحد الأدنى في هندسة الجملة بحيث لا يتأثر المعنى ولا يختل التركيب.

4- التبديل:

وهو التعبير عن المعنى المراد من اللغة المترجم منها بطريقة مختلفة في اللغة المترجم إليها ولكنها صحيحة المبنى، ومن أمثله التبديل، استغلال الإمكانات النحوية والصرفية، وهذا المفتاح يعتبر من أجود وسائل التكييف في اللغة المترجم إليها.

5- التقريب:

وهو تقريب المواقف ومقتضيات الحال، التي تختلف باختلاف الثقافات والتقاليد والأعراف إلى فهم المترجم له، وبما يتبين المقصود عن طريق التكييف.

6- المعادلة:

تطبق هذه الطريقة عندما تستهجن الترجمة الحرفية، ويتعذر التبديل، ذلك أن التعبير قد يكون صحيحاً من الناحية النحوية، لكن يمجح ذوق المترجم ويستغربه ويشوش عليه المعنى، وتكون المعادلة إعادة تكوين الجملة حسب مستلزمات اللغة والمعنى والمنطق.

والغرض من المعادلة أن يصبح النص سهل المأخذ بإيراد تعبير معادل مستساغ يجري على منوال اللغة⁽¹³⁾، وفي هذا المعنى يقول الجاحظ: « إن الترجمان يجب أن يكون في نفس مستوى المترجم، ووزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول منها، والمنقول إليها، مما جعل آداب الفرس تصاغ بالعربية ويزداد حسن بعضها بالترجمة⁽¹⁴⁾»، الجاحظ هنا تكلم عن ترجمة الأدب الفارسي إلى العربية، هذه الترجمة التي كانت نتيجة لمجموعة العوامل المساعدة على التقارب الإنساني بين الشعبين، وهي: أولاً - طبيعة اللغة الفارسية التي تعتبر إحدى لغات الشرق القديمة، والحضارة الفارسية من الحضارات التي اتصلت بها الحضارة العربية الإسلامية. وهذا الاتصال كان سببه مجموعة من العوامل، منها: الموقع الجغرافي بين الدولتين؛ الفارسية، والعربية، فالحوار بين الدولتين سمح بوجود كتاب عرب يقومون بأعمال إدارية في مقاطعات الدولة الفارسية منها الحيرة ونواحيها، وهذا ساعد على ربط الصلة بين عرب الحيرة واليمن ودولة الفرس حتى قبل الإسلام وكان في دواوين الدولة الفارسية كتاب عرب، والأدب العباسي تكون في بيئة جغرافية متشعبة بالنفس الفارسي، نتيجة للدور السياسي الذي لعبه الفرس في تقويض أركان بني أمية وصعود بني العباس إلى هرم سلطة الدولة. فبغداد التي كانت قرية صغيرة أصبحت مركز الخلافة العباسية، وملاذاً لراحة الملوك ونبلاء دولة الفرس.

إن هذا التقارب الجغرافي والثقافي يفرض التعاون والتبادل التجاري بين الشعبين، ولا مناص من الاهتمام بالترجمة والعناية بالمترجمين وتشجيعهم، وكان من الطبيعي أن تتم الترجمة من الفارسية إلى العربية، لأنها كانت الدولة القوية حضارة وفكراً، شأنها في ذلك شأن العرب في الوقت الحاضر حيث أصبحوا يترجمون من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وهناك عامل آخر ساهم في عملية التقارب وحسن الحوار وهو التسامح الإسلامي الذي وفر التربة الخصبة، والمناخ اللطيف الذي ساهم في انتشار عناصر ثقافية مختلفة المصدر

متشابهة المضمون، هذه الثقافات التي صاحبت الفتوحات الإسلامية، وسهلت الاختلاط المباشر بين المسلمين الفاتحين، وسكان الأراضي المفتوحة أثمر حركة الترجمة والنقل للمادف الذي سمح بالتعرف على الفلسفات والعقائد الأجنبية⁽¹⁵⁾. وقد مرت الترجمة من الفارسية إلى العربية على المراحل الآتية:

المرحلة الأولى: ترجمات مستقلة حيث يهذب المترجم النص حسب ذوقه وملاءمته مع البيئة.

المرحلة الثانية: يترجم قسم من الكتاب أو يقتبس قسم منه أو يلخص حسب الحاجة، مثلما حصل مع كتاب (خدای نامه) أو سيرة الملوك، ومن عيوب هذا الاقتباس أنه يجعل عدة ترجمات لكتاب واحد، ولا يلتزم بالنص الأصلي.

المرحلة الثالثة: هي أخذ كتاب أو مجموعة كتب فارسية، وإضافة مباحث أخرى لصياغة كتاب جديد باسم مغاير باللغة العربية، مثلما فعل ابن مسكويه مع كتاب (جادون خرد) أي الحكمة الخالدة⁽¹⁶⁾، ولا يمكن أن نتقل من الترجمة الفارسية إلى العربية دون أن نذكر بعض المترجمين الذين مدوا جسور التواصل الحضاري والثقافي بين الفرس والعرب، هذا التواصل الذي تمثل في نقل بعض النماذج في التسيير الإداري وبعض السلوكيات العائلية، والمعاملاتية، حتى أن بعض بلاطات الخلفاء العرب أخذت صورة عن البلاط الساساني، إلى درجة شبه التطابق بين النموذجين الفارسي والعربي، كما هو الحال عندنا مع الإدارة الفرنسية، حيث أصبحت مكاتب بعض المسؤولين فخمة مثلها مثل مكاتب الإدارة الفرنسية، ويبقى الفرق الأساسي بين الصورتين في طريقة التعامل مع المواطن ومشاكله اليومية.

الترجمة من الفارسية إلى العربية:

عرفت اللغة الفارسية وحضارة الفرس نفضة علمية في عهد الملك "أنوشروان" تحت تأثير الترجمة من الهندية واليونانية، ومن الكتب التي ترجمت كتاب "الإسكندر المقدوني، سيرته وتاريخه". هذا الملك الذي وحد بين مدينتي أثينا وأسبرطة، وكانت اللغة الفارسية التي احتك بها العرب في أول أمرهم لغة علم وحضارة في عصر الساسانيين، وفي أنحاء إمبراطوريتهم الشاسعة من العراق حتى حدود خوارزم. وكانت هذه اللغة تحوي فنونا مختلفة من آداب السياسة والحكم، إلى الأدب التعليمي والأدب الأخلاقي، وآداب

الرسائل والعهود، والخطب والحكم، والتاريخ والسير والتراجم. إذن فإنّ الأدب الذي احتكت به العربية في أول أمرها في العراق كان أدبا واسع النطاق، شمل الحياة الثقافية والحضارية، وهذا في وقت كانت فيه العربية في أمس الحاجة إلى الكثير من التعابير والألفاظ التي لم يكن لها سابق عهد بها في حقل السياسة والإدارة والعلم والأدب أو في حياة مجتمع جديد، له اتصال بعلوم العصر وحضارته، فكانت اللغة الفارسية هي التي السائدة في الحياة العربية في هذه المرحلة، بما كانت تحتاجه للتعبير عن الحياة الحضارية فأمدتها بمصطلحات كثيرة في فروع الإدارة والدواوين، وفي فنون الكتابة والرسائل الديوانية، وفي أقسام العلوم، كالنجوم وعلم النبات وغيرها⁽¹⁷⁾، ومن المترجمين الذين ساهموا بقسط كبير في هذا الميدان نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

ابن المقفع:

اسمه قبل إسلامه (روزبه) وبعد إسلامه (عبد الله)، وهو من مواليد إحدى مقاطعات فارس في إيران.

تولى بعض المناصب الإدارية في عهد الخليفة الأموي مروان بن محمد سنة 127 هـ، وبعد مقتل داوود بن يزيد في بدء الدولة العباسية سنة 132 هـ، دخل ابن المقفع في خدمة عيسى بن علي وأخيه سليمان في البصرة. وقد أسلم ابن المقفع على يد عيسى بن علي، وقتله سفيان بن معاوية والي البصرة بتهمة الزندقة⁽¹⁸⁾. وقد نقل ابن المقفع كتباً عديدة من الفارسية إلى العربية، منها:

1- كتاب خدای ناما فی السیر، وهو کتاب فی سیرة الملوك.

2- کتاب کلیلة ودمنة.

3- کتاب مزدك.

4- کتاب التاج فی سیرة أنوشروان.

5- کتاب الأدب الصغير.

6- کتاب الأدب الكبير.

7- کتاب الیتيمة فی الرسائل.

ويذكر ابن أبي أصيبعة أن ابن المقفع ترجم إلى العربية من كتب أرسطو طاليس كتاب "قاطيغورياس" "المقولات العشر" وكتاب باري أرميناس "العبارة" وكتاب أنالوطيقا

"التحليل"، ونقل أيضا كتاب المدخل إلى المنطق المعروف بإيساغوجي من تأليف فرفيوس الصوري⁽¹⁹⁾.

وهناك عائلة أخرى اشتهرت بالترجمة من الفارسية إلى العربية هي عائلة آل نوبخت، التي اشتهرت في علم الفلك، ونوبخت هو الذي أشرف على تخطيط مدينة بغداد^(*) في عهد الخليفة المنصور⁽²⁰⁾ وترجم كتباً يونانية علمية في الكيمياء مثلاً، ونقل به عدة رسائل. والمعاملة نفسها حظي بها مترجمون أقباط، وسريانيون في عهد الدولة العباسية تحت إمارة هارون الرشيد مؤسس بيت الحكمة الذي جمع بها عدة مترجمين، ومن أشهرهم "حنين بن إسحق" الذي خصصت له مبحثاً خاصاً يأتي لاحقاً، وكذلك "يوحنا بن ماسويه". والملاحظة المهمة هنا، هي أن خلفاء بني العباس فتحوا المجال للمترجمين من كل الأجناس والعقائد، نظراً لكون العلم لا لون له ولا جنس ولا حدود جغرافية، ويعتبر هذا عاملاً مهماً في ازدهار الحضارات، أضف إلى ذلك أن الفكر الإسلامي متفتح على كل العلوم والحضارات.

الترجمة من اليونانية إلى العربية:

حنين بن إسحق: 194 – 260هـ/810 – 873م

هو طبيب، مؤرخ ومترجم، كان أبوه صيدلانياً من أهل الحيرة بالعراق، سافر إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وفي بغداد اتصل بيوحنا بن ماسويه، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، وجعله المأمون رئيساً لديوان الترجمة⁽²¹⁾. ومن المؤلفات التي قام بترجمتها:

- كتب أبقراط وجالينوس
- الفصول الأبقراطية في الطب والضوء وحقيقته.
- المدخل إلى الروحانيات.

وهناك مؤلفات أخرى ترجمها إلى العربية منها:

- مؤلفات إقليدس في الرياضيات،
- ومؤلفات أرخميدس في الكيمياء،
- مؤلفات أرسطو في الطبيعيات وفي علم النفس،
- مؤلفات أبولونيوس في الرياضيات والنجوم.

ولكن هناك بعض الصعوبات واجهت حنين بن إسحق في إيجاد ألفاظ عربية لمسميات يونانية، وقد سبقت الإشارة إلى مثل هذه الصعوبات المنهجية والعلمية التي لا تغيب عن أي عمل علمي. ولكن المأمون كان يشجعه بإعطائه مقابل كل كتاب مترجم وزنه من الذهب. وهناك عامل مهم لعب دوره في الإقبال على الترجمة وهو حب العرب الاطلاع على ثقافات جديدة لتوسيع معارفهم وتطوير ثقافتهم بعلوم غيرهم، وكذلك حث القرآن الكريم المسلمين على التفكير وطلب العلم مهما كان المكان بعيداً⁽²²⁾، خصوصاً بعدما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية التي جمعت أقواماً مختلفة في اللغة والعرق. ولكنها اجتمعت في الدين الإسلامي الذي أرسى قواعد متينة لبناء حضارة عريقة ودولة عظيمة⁽²³⁾.

إنّ الواقع الذي تغير بعد الفتوحات الإسلامية التي شملت بلدانا ذات لسان غير عربي فرض على الخلفاء والأمراء تشجيع الترجمة لتحقيق هدفين متكاملين:
الهدف الأول: هو تبليغ الفكر الإسلامي إلى الشعوب الناطقة بغير العربية من أجل التمكين لعقيدة التوحيد في هذه البلدان.

والهدف الثاني: هو تمكين حضارة هذه الشعوب من تلقيح الفكر العربي وجعله يستنشق أوكسجين الثقافة غير العربية، علّه يرقى إلى مستوى الشعوب الأكثر رقياً فكراً وحضارة، وقد انعكس هذا على الفلسفة الإسلامية التي قلما نجد فيها فيلسوفاً أو مفكراً عربياً لم يتأثر بالفكر اليوناني، أو الهندي أو الفارسي. والفضل في هذا كله يعود إلى الترجمة، وتأسيس الجامعات التي أضاءت العالم بفكرها كما أضاء القمر غياهب الظلام الذي كان يلف أوروبا في القرون الوسطى⁽²⁴⁾.

وحنين بن إسحق الذي تحدثت عنه سابقاً لقي تشجيعاً مادياً ومعنوياً من خلفاء بني العباس خدمة للثقافة والمعرفة العلمية وإثراء للحضارة العربية الإسلامية⁽²⁵⁾، والحديث عن الحضارة العربية الإسلامية يطرح أمامنا إشكالا يتعلق بالمفهوم، فهل نتحدث عن الحضارة العربية، أم عن الحضارة الإسلامية، أم عنهما معاً؟ الرأي الأول يفضل استعمال مصطلح "عربية" على أساس أن العرب هم أول من تلقى الإسلام وحمل لواءه ونشر حضارته، فضلاً عن أن اللغة العربية هي لغة الحضارة التي نتحدث عنها. الرأي الثاني يريد تسميتها بالحضارة الإسلامية لأنها قامت على الإسلام وقد

أسهمت فيها شعوب غير عربية من يهود ونصارى ومجوس⁽²⁶⁾. والموقف المناسب في رأيي هو أن نسميها حضارة عربية إسلامية، فهي عربية اللسان، وإسلامية الروح، ومفهوم العروبة حضاري وليس عرقيا أو إقليميا. وهذه الميزة التي جعلت الحضارة العربية الإسلامية تنتشر وتموقع في مشارق الأرض ومغاربها، لأن الإسلام تبنى الحوار منهجا، والتسامح سلوكا، وقبول الآخر مبدءا. وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾⁽²⁷⁾ وهو ما سدَّ جميع الأبواب على المتزمتين من بعض رجال الدين الذين تحاملوا على علوم اليونان وغيرهم الذين حاولوا بدون جدوى التصدي لترجمة علوم الآخر إلى تراث المسلمين. فكان ذلك بدء العصر الذهبي للإسلام الذي ازدهرت فيه الترجمة⁽²⁸⁾، لعب البرامكة فيها دورا هاما بنشر الثقافة الفارسية في العالم العربي. ومنهم علي بن زين الطبري، الطبيب المشهور في العصر العباسي، وكان كتابيا ثم أسلم، وقدم خدماته الطبية للخليفة المعتصم، ثم المتوكل وألف كتابه الشهير "فردوس الحكمة" الذي يعتبر جديدا على الثقافة العلمية العربية⁽²⁹⁾.

قسطا بن لوقا 912:

بعليكي المولد، ونصراني التدين شغف بالطب إلى أن حذقه، وتحكم في اللغة السريانية والعربية، واتسمت ترجمته بالوضوح واستواء العبارة، وكتب في التاريخ والفلسفة والفلك والجبر والمقابلة، والهندسة والمنطق، ورسالة في الدم وفي المرايا الحارقة⁽³⁰⁾.

من خلال ما تم ذكره يتبين أن العرب استفادوا من علوم غيرهم وازدهرت حضارتهم بفضل المترجمين الذي حظوا بالتشجيع المادي والمعنوي من قبل الملوك والأمراء. ولكنهم فيما بعد أفادوا غيرهم عندما كانوا في أوج عزهم وفي عهد ازدهار حضارتهم، وعندما ضعفوا راحوا يبحثون عن جديد في حضارات الأمم الأخرى عليهم ينهضون من كبوتهم، ويستفيقون من سباتهم، وهكذا فالحياة سجال يوم لك ويوم عليك. وقد جاء دور الأوروبيين للاستفادة مما ترجمه العرب ونقلوه إلى اللغة اللاتينية، وراحوا يتنقلون إلى عواصم العلم والثقافة لتعلم اللغة العربية وترجمة كنوز المعرفة العربية إلى اللاتينية.

الترجمة من العربية إلى اللاتينية وأثرها في ازدهار الحضارة الأوروبية:

من المعلوم أن عواصم الدول هي محطات اللقاء بين الدول والشعوب، ومنها تنبعث الشرارات الأولى للاتصال الحضاري والانبعث النهضة، وهو ما حدث فعلا بين العرب والأوروبيين، حيث كانت طليطلة وصقلية وإيطاليا محطات الاتصال بينهما في عهد الملوك النورمان، نظرا لتجاور المنطقتين (أوروبا وإسبانيا) وتبدأ العلاقة الثقافية برحلة البابا (جوير دي أورباك) إلى إسبانيا ومكوثه فيها ثلاث سنوات (967 - 970م) حيث قرطبة الزاهرة بالعلم وطليلطة الزاخرة بالمكتبات العلمية والمؤسسات ذات الشهرة في العلوم المختلفة التي ساهم في إثرائها بالنقل والترجمة طوائف دينية مختلفة: يهود، مسلمون، مسيحيون. ومن الذين ساهموا في قيام حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، (ريموندو) 1126 - 1152 مطران طليطلة إلى جانب مجموعة من المترجمين الأحرار، و المترجم (دومنجو غنصالبة) ويوحنا الإسباني الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية، كتب في علم الفلك وكتب الخوارزمي الذي انتقلت بفضلها الحسابات الهندسية إلى أوروبا، والنظام العشري إلى أوروبا. بالإضافة إلى هؤلاء: فروجار الثاني، ملك النورمان الذي أنشأ أكاديمية للترجمة يعمل فيها العلماء المسلمون واليهود والنصارى⁽³¹⁾، وهذا ما يبين دور الانفتاح على الغير ونبذ التعصب في خدمة الثقافة وازدهار الحضارة وتقارب الشعوب، مما حققه ازدهار الترجمة ونفاذ علوم العرب إلى الغرب.

ومن الذين لعبوا دورا في نقل العلوم العربية إلى اللاتينية.

أديلارد من بارث: 1070 - 1135

هو ابن عم هنري ملك إنجلترا، تعلم العربية في الأندلس وكان رائدا في الترجمة من العربية إلى اللاتينية، زار طليطلة وصقلية وإيطاليا، واطلع على كتب الفلك والطب والرياضيات، بقي في المشرق خمس سنوات تقريبا. وترجم كتب الخوارزمي في الرياضيات وعلى يده انتقلت نسخة من هذا الكتاب إلى ألمانيا⁽³²⁾. وإذا كانت الترجمة تلعب دورا حضاريا، فإنها في الوقت نفسه تلعب دورا سياسيا وعسكريا فالاستعمار يحتاج إلى مترجمين، ولكن مترجمين يخدمون مصالحه أكثر مما يخدم مصالح الشعوب المستعمرة، وهكذا اجتاحت الحملة الفرنسية على مصر مترجمين وشجعت الترجمة، ولكن ترجمة الأوامر والمنشورات الرسمية وخطب الحكام لإقناع الشعب المصري بضرورة الاستسلام

للأمر الواقع، وقد اشترك هؤلاء المترجمون مع بعض المستشرقين في ترجمة المنشور الذي أعده نابليون بالفرنسية، والذي طبع على ظهر البارجة (الشرق) إحدى سفن الأسطول الفرنسي، ولما استقر الفرنسيون راحوا يطاردون المواطنين ويستولون على أموالهم، ويستعملون مترجمين وسطاء بين الجيوش الفرنسية والسكان⁽³³⁾. إنَّ هذه الحملة التي اعتبرها الفرنسيون رحمة على الشعب المصري لإدخالها المطبعة التي ساهمت في الترجمة والتأليف، ونشر المعرفة والحضارة كان لها أثرها السليبي على الجانب الثقافي والاجتماعي.

الخلاصة:

تسهم الترجمة إذن في لخدمة الشعوب والتقارب بين الحضارات، كما قد تمكّن من الاطلاع على أسرار الأمم والإيقاع بها، وهذا ما جعل الدول العظمى تهتم بتعلم اللغات الشرقية وترسل البعثات الطلابية إلى الجامعات العربية لتمكن من لغاتها، ثم تعود إلى بلدانها لتستعمل هذه اللغة سلاحاً ضدها. أما شباب العالم الثالث فإنّه يتعلم اللغات الأجنبية لا للاستفادة من جوهر حضارة الغرب، ولكن للذوبان في مظاهرها والانحلال في خلقها، وبقينا نحن العرب نتغنى بالماضي دون أن نهتم بضعف الحاضر، ويبقى الفارق الأساسي بين العرب والغرب، هو أن الغرب لا ينقل علومه من مصادر غير مصادره، بل يطبقها فيما يخترعه، ثم يعطيها لنا جاهزة غير منقوصة، ونحن راضون بما قدمناه بالأمس للغرب حين كنا أسيادا، فلا عيب إن أصبحنا اليوم عبيدا لهم⁽³⁴⁾، ومن لم تفده أيامه العبر كان له العمى أولى من البصر.

الهوامش:

- 1- إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، مصر، 1970، ص. 37.
- 2- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، م3، دار المعارف، بيروت - لبنان، 1971، ص. 454.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، ج4، دار صادر، لبنان - بيروت، 2003، ص. 148.
- 4- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971، ص. 476.
- 5- رينه ماهو، حضارة الإنسان، ترجمة: أنطوان حمصي ومهارة شرشر، مراجعة وتقدم: جميل صليبا، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق - سوريا، 1968، ص. 11.
- 6- سورة الحجرات: الآية 13.
- 7- سورة الروم: الآية 22.
- 8- شحادة الخوذي، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، دار الطليعة، سوريا، 2007، ص. 10.
- 9- محمد الديدواوي، الترجمة والتعريب، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، 2002، ص. 81.
- 10- إبراهيم زكي خورشيد، الترجمة ومشكلاتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985، ص. 15.
- 11- شحادة الخوذي، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، مرجع سابق، ص. 16.
- 12- حنفي بن عيسى، مجلة الثقافة، عدد 63، مايو 1981، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ص. 7.
- 13- محمد الديدواوي، الترجمة والتعريب، مرجع سابق، ص. 95.
- 14- إبراهيم زكي خورشيد، الترجمة ومشكلاتها، مرجع سابق، ص. 7.
- 15- عرفان عبد المجيد فتاح، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الجيل، بيروت - لبنان، 1991، ص. 11.
- 16- الحكمة الخالدة، تحقيق وتقديم: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1952، ص. 3.
- 17- محمد محمدي، الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، بيروت - لبنان، 1967، ص. 93.
- 18- المرجع نفسه، ص. 109.
- 19- المرجع السابق، ص. 113.
- 20- بغداد: كلمة فارسية معناها (عطاء الله) ونوبخت معناه الحظ الجديد. (انظر المؤتمر السنوي لتاريخ العلوم عند العرب، مرجع سابق، ص. 36).
- 21- محمد ماهر حمادة، رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغربة، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992، ص. 114.
- 22- خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم، ج2، بيروت - لبنان، 1964، ص. 640.
- 23- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص. 103.
- 24- حمادة محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978، ص. 8.
- 25- توماس أربولوند، تراث الإسلام، تعريب: جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، 1972، ص. 506.
- 26- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، ج1، دار المعارف، مصر، 1966، ص. 40.
- 27- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة، دار الوفاء، الإسكندرية، 2005، ص. 55.
- 28- سورة النحل: الآية 125.
- 29- توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985، ص. 72.
- 30- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، مرجع سابق، ص. 59.
- 31- كمال اليازجي وأنطوان غطاس كرم، أعلام الفلسفة العربية، دار المكشوف، لبنان، 1968، ص. 92.
- 32- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في الفكر الأوروبي، دار الآداب، بيروت، 1965، ص. 10.
- 33- هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: فاروق نبوض وكمال دسوقي، المكتب التجاري، بيروت، 1969، ص. 75.

- 33- جمال الدين الشيبان، تاريخ الترجمة في الحملة الفرنسية، دار الفكر العربي، الإسكندرية، 1949، ص.30.
- 34- حسن حنفي، قضايا في فكرنا المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص.160.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- 1- إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، مصر، 1970.
- 2- إبراهيم زكي خورشيد، الترجمة ومشكلاتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985.
- 3- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، ج1، دار المعارف، مصر، 1966.
- 4- ابن منظور، لسان العرب، ج4، دار صادر، لبنان - بيروت، 2003.
- 5- أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة، دار الوفاء، الإسكندرية، 2005.
- 6- توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985.
- 7- توماس أولوند، تراث الإسلام، تعريب: جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، 1972.
- 8- جمال الدين الشيبان، تاريخ الترجمة في الحملة الفرنسية، دار الفكر العربي، الإسكندرية، 1949.
- 9- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971.
- 10- حسن حنفي، قضايا في فكرنا المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1981.
- 11- حمادة محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978.
- 12- حنفي بن عيسى، مجلة الثقافة، عدد 63، مايو 1981، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر.
- 13- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج2، بيروت - لبنان، 1964.
- 14- رينه ماهو، حضارة الإنسان، ترجمة: أنطوان حمصي، مراجعة وتقديم: جميل صليبا، وزارة الثقافة والسياحة، دمشق - سوريا، 1968.
- 15- شحادة الخودي، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، دار الطليعة، سوريا، 2007.
- 16- عبد الرحمن بدوي، دور العرب في الفكر الأوروبي، دار الآداب، بيروت، 1965.
- 17- عرفان عبد المجيد فتاح، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الجليل، بيروت - لبنان، 1991.
- 18- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.
- 19- كمال البيازجي وأنطوان غطاس كرم، أعلام الفلسفة العربية، دار المكشوف، لبنان، 1968.
- 20- محمد الديدواوي، الترجمة والتعريب، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، 2002.
- 21- محمد فريد وحدي، دائرة معارف القرن العشرين، م3، دار المعارف، بيروت - لبنان، 1971.
- 22- محمد ماهر حمادة، رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغربة، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1992.
- 23- محمد محمدي، الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، بيروت - لبنان، 1967.
- 24- هونكة زيفريد، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: فاروق بيوض وكمال دسوقي، المكتب التجاري، بيروت، 1969.
- 25- الحكمة الخالدة، ترجمة وتحقيق وتقديم: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1952.